قصة قصيرة؛ جمعة فی مكة

پدیدآورده (ها) : محمد علی،کفاح
فلسفه و کلام :: التوحید(عربی) :: آبان 1366 - شماره 31
از 88 تا 93
آدرس ثابت : http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/10432

دانلود شده توسط : پژوهشکده حج و زیارت
تاریخ دانلود : 05/10/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائهٔ مجلات عرضه شده در پایگاه،مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه قوانین و مقررات استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.ir

قصة قصيرة

في مكة

كفاح محمد علي

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

□ كان الوقت عصراً، ودرجة حرارة المكان مرتفعة، كما هو المألوف في مكة المكرمة... وبدت الكعبة فرحة مستبشرة وكأنها افاقت بعد سبات طويل أو غفوة ليست بالقصيرة، وهي تستمع لهتافات التكبير والتهليل ولدوي كلمات البراءة من الشياطين، ترن أصداؤها حول البيت العتيق، فتهتز الجدران خشوعاً لكلمات التوحيد. كانت تنصت بكل خشوع وبكل اعتزاز إلى تلك الهتافات وهي تبارك مسيرة البراءة تلك، فتتذكر أيام مجدها الغابر، يوم كان الرسول (ص) يطوف حولها مع صحبه الكرام وهو يكبّر ويهلل... فتلك هي انشودة الكعبة... وتلك هي الزغاريد التي تأنس بها وتغتبط لها... مآذنها العالية، التي كانت تطل لترى تلك الجموع الغفيرة من الرجال والنساء. عجائز وشيوخ وشباب ومعوقون يسيرون في شوارع مكة، رافعين أيديهم إلى السماء، نابذين كل الأصنام البشرية، معلنين براءتهم من كل مستكبر ومن كل شيطان مريد...

www.noormags.ir

□ كنت بجانب شقيقتي الكبرى في المسيرة الحاشدة، تنفيذاً لكلمات الامام حفظه الله، التي أوجبت علينا المشاركة في هذه المسيرة الإلهية... فعليّ أنا أيضاً أن ارجم الشياطين وأن ألعنهم... منذ أيام قليلة كانت قد لمست قدماي تراب مكة الطاهر... كنت أعيش في غبطة عظيمة لا توصف، وأشعر بأن روحي تتسامى نحوالسماء بعد أن قطعت المسافات الطويلة لأداء فريضة الحج الإلهية، ولأطوف حول الكعبة الشريفة، ولأجدد عهد التوحيد جنب مقام ابراهيم (ع)، ولأستمع في كل شبر وفي كل ركن في مكة إلى حكايات البطولة والجهاد، والى قصة الاسلام العظيم الذي بزغت شمسه في ليل مدلهم من ليالي الجاهلية الحالكة السواد، فأضاء بنوره الإلهي البهي سماء الكون كله... كان العرق يتصبب من وجهي فأنا لم اعتد على هذه الحرارة العالية. ولكن مهما اشتد الحر فإنه في سبيل الله، إنه عذب المذاق... كنا نسير بهدوء تام وكنت مع موكب النساء وسط المسيرة... وفجأة صكت حجاب اذني أصوات رصاصات تطلق هنا وهناك ... حول الكعبة الآمنة! في البدء لم أصدق أنها كانت إطلاقات رصاص تتطاير شرارتها في سماء مكة، المدينة الآمنة. وأثناء زيارة الحجيج، والمآذن تستعد وتتهيأ لمناداة بأذان المغرب!! كلاّ، هذا لايكون!... ولكن تكرار اطلاق الرصاص حملني على تصديق الأمر، وظننت لأول مرة ان الرصاص يتطاير في الهواء... ربما تفجيرات... أو سخويفات واجبارنا على التراجع... وهذا أمرٌ يخالف الشريعة وآداب الزيارة. فلا موجب لاعتراض طريقنا ونحن ضيوف الله وحجاج بيته!... وعاد اطلاق الرصاص من جديد بكثافة أشد... حارت الأفكار وأخذ بعضها يصارع بعضاً، تارة تطفو واخرى تغطس... واخذت الأسئلة الكثيرة تطرق رأسي، تارة تهدم وتارة تبني، وهي تبحث عن الضوء الأحمر الذي يكشف عن الحقيقة الضائعة تحت جسر (الحجون)... وحلّ بالأكواخ البشرية فزعٌ وضجيج واخذت تتصادم وتتزاحم... وهنا وقع بصري على شيخ ملطخ ثوبه بالدماء وهو يضع يده على جبهته... وأخذت تطرق مسامعي أصوات استغاثات هنا وهناك، ورأيت جنود الشيطان بخوذهم ودروعهم وعصيهم يتسابقون نحونا وهم يهمّون بافتراسنا. وكأننا لقمة سائغة تلوكها عساكر آل سعود في أرض الله المباركة الآمنة... ولا أدري لماذا هذا التهجم علينا بلاسبب، ونحن عُزّل من كل سلاح إلّا من ايماننا وعقيدتنا!.

وعلى حين غرة جذبتني موجة عظيمة من البشر وسقطت فوق عدد من النساء وفوقي اخريات لا أدري كم عددهن، فيما كنّ يتراكضن باحثات عن ملجأ للخلاص. وبصعوبة بالغة خرجت من بين الأجساد المتراكمة، وأخذت أعدو طلباً لملجأ أمين، أريد الأمن والأمان... لكن لم يعد في بيت الله أمن ولا أمان. وتساقطت الحاجّات مع الحجيج، وتلطخت الملابس

www.noormags.ir

بالدماء، وتحولت إلى أكفان شهداء في سوح الوغى ... وهنا وقعت عيناي على امرأة عجوز يحملها بعض الرجال وهي متأزرة بازارها الأسود (الجادر)... استشاطت في نفسي غريزة الدفاع، واستولت على أوصالي حمى التحدي والصراع من أجل البقاء... ولكن كيف ياترى ادافع عن نفسي وأنا عزلاء؟ وبأي شيءٍ أقي حياتي من موت مطبق وأنا لا ألبس درعاً ولا خوذة حرب... ليس أمامي سوى الركض والجري هنا وهناك ... السماء تمطرنا بوابل من الأحجار والزجاج (والصفائح) وكأنها حمم القسوة والحقد، لا تبالي إن فقأت عيناً لحاج أو قطعت وريداً لامرأة... كانت هذه الحناجر المتساقطة تنهال علينا من فوق (جسر الحجون)، ومن العمارات القريبة، ومن موقف للسيارات متعدد الطوابق، مما جعلني أجزم ان ماحدث لم يكن وليد ساعته، بل كان هناك استعداد سابق للأمر، وإلّا فكيف اجتمعت كل تلك الحمم في لحظة واحدة؟ النفوس جمّدها الذهول والاندهاش... والقلوب كانت خافقة والناس في هرجٍ ومرج، ما بين داع يدعو ويستغيث، وصارخ يصرخ بفزع وخوف... كنت أعدو وأنا أبحث عن ملجأ أقلب طرفي هنا وهناك أبحث عن أرض السلام وأتلمسها كما يتطلع الساري في ظلمة الليل البهيم إلى نجمة يهتدي بها... ولم أنتبه لما يجري أمامي، وإذا بماءٍ حار ينصب على وجهي من خرطوم طويل موجّه إلى الجموع الحاشدة من حجاج بيت الله. أحسست أني أكاد اشوى، وأن وجهي يحترق،.. ما ألعن هذا الزمن الذي جاء للكعبة بسدنة يحرقون زوارها بالماء الحار ويقتلونهم، وكأن هذا هو من آدابهم مع الضيوف ومع الحجيج...

الضجيج والصياح والاستغاثات والتوسلات تتعالى من كل مكان، دونما مجيب... وعدت أعدو من جديد وأنا احاول أن أتقي العصي والأحجار والمياه بين الحشود المتزاحمة... وقع بصري على رجل معوق في عربته... الدم كان يسيل من وجنته، وتخضبت ملابسه وعربته بالدماء القانية المنسابة من رأسه. هذا المسكين قد اصيب في جبهات الحرب بشلل في ساقه برصاص الامريكان، وها هو الآن تصيبه رصاصة امريكية اخرى في مكة رفعت روحه الطيبة إلى الملأ الأعلى قبل أن يتاح له أن يكمل حجّه!... ووجدتني وأنا أقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة دون وعي، وإذا بشيءٍ يرتطم بالأرض إلى جانبي.. كانت القنانى مازالت تنهمر من فوق فتتهشم على الرؤوس... وبلا ارادة أسرعت بالركض، فتعثرت عباءتي بعربة ذلك المعوق الشهيد، فجذبتها بقوة فتمزقت أطرافها... ولكني حمدت الله لأني كنت أرتدي جلباباً طويلاً وجوراب سميكة، حافظت بها على حجابي، رمز إسلامي... وأخذت أدور هنا وهناك كحمامة مقصوصة الجناح تحتوشها النسور الجارحة من كل صوب، تريد أن تفترسها افتراساً! آه... رحماك يا رب... هل كتبت في صحيفة أيامي أن أذل وأُسبىٰ وأنا في بيتك الأمين!.

www.noormags.ir

أم هل كتبت لي في طيّات القدر أن أجري حائرة أبحث عن ملجأ يأويني بعد أن عجزت عن ذلك كعبتك ؟. آه... مغفرة يارب! سأبقى أحمدكَ وأشكركَ ، فخذ حتى ترضى...

□ كانت الشمس قد استحالت إلى قرص نحاسي غشيتها سحنة بلون الدم... والسماء كلها حمراء... وتحولت أرض مكة وشوارعها إلى ساحة صراع وحشي، والأرض غطّتها الجثث والمقانع والعباءات والأشلاء والدماء... وزمزميات الماء... ولاحظت زقاقاً صغيراً فعدوت نحوه، وأنا أحمي وجهي ورأسي، حتى أفلحت في الافلات من العسكر!... لم أدرِ كم ركضت، ولكني كنت أبحث عن شبر من الأرض أريح عليه قدميّ اللتين تعبتا من الجري هنا وهناك ... وأخيراً رميت بجسدي المثقل عند أحد الأبواب، وقد راودني شعور بأني قد أفلتُّ من الموت المحتوم بمعجزة... لكني تألمت للآخرين الذين كانوا ما يزالون يصارعون الموت. كانت الشمس قد بدأت تعود شيئاً فشيئاً إلى مخدعها... منكسرة ثكلى... تشكو ظلم الانسان لأخيه الانسان، وكأنها هي الأخرى هربت من ساحة الوغى وهي تنزف دماً... وها هو القمر يهم بالصعود والارتقاء لكنه يفعل ذلك ببطء شديد كالخائف المترقب... مازال الضجيج والصياح ودوي صافرات الاسعاف تهز المسامع... كل ما جرى أمامي كان يدعوني إلى التساؤل... لِمَ أطبقوا علينا يريدون إبادتنا؟ ماهي جريمتنا كي ينتقموا منا هذا الانتقام الوحشي الهمجي!؟ جلست القرفصاء وقد تبلد عقلي... لا أدري ما أفعل... قد يختطفونني... قد يفتح هذا الباب عن واحد من رجال الأمن فيقتلني! أسلمت أمري إلى الله وتوكلتُ عليه، وقلت: فليحدث ما يحدث... وهنا ارتفع صوت المؤذن من مئذنة الكعبة يؤذن. انهمرت من عيني الدموع... لقد أحسست بأن الكعبة مسبيّة مثلي... ففي صوت مئذنتها ألم الانكسار، وفي نبراتها ثقل المصاب... الدقائق تمر وئيدة كدموع الثكلى! والليل بدأ يسدل الستار على مكة كلها... وعباءتي الممزقة كانت تسترني ويضيعني سوادها في سواد الليل... أحسست بجفاف شفتي وتقشر بشرتها، وبأني بحاجة ماسة إلى قطرات من الماء. بحثت عن قنينة الماء التي كنت أحملها فلم أجدها...

كانت سويعات صعبة مازالت متجسدة أمامي وكأنها تمر الآن... إن ما حدث كان كربلاء ثانية... وإذا كان الحسين(ع) قد ترك مكة كي لايراق دمه فيها وليحافظ على قدسيتها وأمنها، فهاهم قد أراقوا دماءنا فيها ودنّسوا قدسيتها... الليل موحش وكأني أسمع فيه أنين الباكين واستغاثات الخائفين... لا أدري كم مضى عليّ من الوقت، لكني كنت أشعر بأنه كان طويلاً وثقيلاً... ولابُدَّ أن أعود إلى مقر قافلتنا... فوّضت أمري إلى الله، انه بصير بالعباد... وقتُ من مكاني أسير ببطء وقدماي عاجزتان عن حملي... كنت أجر نفسي جراً

www.noormags.ir

وأحركها بكل صعوبة... ولمحت زقاقاً ضيّقاً يؤدي إلى الشارع العام فآثرت المسير فيه كي لا أصل إلى مصارع قومي فأرى المزيد من مجزرة الكعبة... وحينما وصلت إلى الشارع العام كان عليّ أن أمشي عدة كيلومترات كي أصل إلى مستقر قافلتنا، فقد نسيت محفظتي عند شقيقتي ولم يكن معي من النقود ما أستقل به سيارة. فشيت وأنا أحبس دموعي، وقلبي يحدثني بأني على موعد مع خطب شديد... الدنيا سجن المؤمن... وهي محط عذابه وشقائه... والآخرة هي راحته وهي دنياه. فلنتعذب ولنجع، ولنحرق، ولنطارد، ولنقتل، لكننا نبقى مسلمين مؤمنين تتعالى أرواحنا وتتسامى، في وقت ركعت الملايين عند نعال السلاطين تقبلها وتمسحها بوجوهها!...

طوال الطريق كان يراودني تساؤل ملحاح واحد... ترى أين شقيقتي؟... هل هي بين الصرعى؟ هل جرحت؟... وهل هي الآن مثلي تضرب في الأرض بحثاً عن مأوى؟... أم لعلها سبقتني في الوصول؟ أم ربما... آه... لا أستطيع أن أفكر... فدماغي متعب ولا أجد في نفسي رغبة في التفكير... سلمت أمري إلى الله، وكل ما يحدث منه فهو رحمة!

وأخيراً وصلت إلى مقر قافلتنا... الآن أحسست بشيء من الأمان... أخذت أتصفح الوجوه... لعلي أجد فيها وجه شقيقتي، لكني لم أجدها... ألقيت بجسدي الخائر إلى الأرض، فقامت احدى الأخوات وجاءتني بقدح من الماء البارد. سألتها عن شقيقتي... فأجابتني بتردد انها قد تأتي خلفي. وقمت إلى صلاتي وأنا في ريب مما حولي... لم تكن نظرات الباقيات نظرات عادية... كن يتهامسن وربما انهن يأسفن! قلبي تحول إلى مخزن للمطارق... تطرقه بكل شدة وتهم بأن تمزق عظام صدري... ما الذي حدث؟ لِمَ لا يخبرونني بالحقيقة وإلى متى يكتمون؟. لا... حتماً أنهم سيتكلمون... لكني لو سألتهم فماذا سأقول؟... هل أسألهم عن سبب الهمس؟ ربما الهمس يدور عمّا حدث، وهن مثلي ولكل واحدة قصة تريد أن تسردها لجارتها... لا... لم يحدث شيء... كل شيء على ما يرام. يبدو أن شقيقتي قد تأخرت مع زوجها... وربما انها معه في الكعبة أو في أي مكان آخر... وعدت اكذب ما حولي لأحيا بأمل لقاء اختي التي تأخرت عنها... كثيراً!

وهنا دخلت احدى الأخوات، وحينما لمحتني وأنا أحتسي الشاي... دعتني إلى الذهاب معها إلى المستشفى لمساعدتها. لكنها ما أن انفردت معي حتى أخذت تلقي إليّ بكلمات العزاء... كانت تحاول أن تجعل وقع الخبر خفيفاً عليّ... لكني لست صخرة... أنا بشر، وفي قلبي مشاعر البشر وعواطفهم. في البدء قالت إن اختي تطلبني، ثم أخذت تحدثني عن الشهادة والصبر والموت، مما جعلني في شك من الأمر... وإذ اقتربنا من المستشفى رجتني أن أخفف عن

www.noormags.ir

نفسي ثقل المصاب فاختي قد لحقت بمواكب الشهداء في قصور الجنان! وتلجلج لساني، وضاعت أفكاري، وتشتت آمالي... كانت تقول لي إن اختي اصيبت بطلق ناري في جبهتها... كان وقع الخبر عليّ كطعنة الخنجر، ذبحت مشاعري وقتلت فرحتي ونحرت قلبي... أحسست أن شغاف قلبي قد تمزق، لم أعد قادرة على التمالك وحبس مدامعي أكثر... وتحررت مدامعي من كل قيد وانطلقت مدراراً... أخذت ألوم نفسي، كيف تركتها ولم افكر إلّا في نفسي؟. لكن ما فائدة اللوم الآن؟ ودخلت المستشفى أمشي على الدماء التي تغطي الأرض وقد افترشتها جثث القتلى، والمضمدون منهمكون في تضميد جراحات المئات من الحجيج... لم يكن هناك مكان لمحط قدم... وهنا وقعت عيناي على زوج شقيقتي يجثو على الأرض جنب جسد شقيقتي... عدوت نحوها. كان رأسها قد انصبغ بدمائها، وبدا خمارها الأبيض وكأنه قد صبغ بلون الشقائق. وحينما رأى زوج شقيقتي أن دموعي قد سبقت تساؤلاتي وتحيتي، لم يتمالك نفسه وانهارت دموعه على خديه وهويرنو إلى زوجة العمر وشريكة الحياة وأم أولاده الخمسة! وبغير ارادة مني ارتميت فوق يدها... اقبلها وأتوسل إليها... آه، اختي، كلميني!... اصفحي عني!... انظري إليّ يا أعز الناس وحدثيني!... آه من يتم الصغار!... آه لدموع امي وأبي... آه من الأيام التي غدرت بي وسددت رميتها إلى صدري وأنا في الحج! آه... كيف سأعود ويداي صفر منك، وماذا سأقول لأولادك وبناتك؟ هل ستكون جنازتك هي الهدية التي سأقدمها لهم بعد أن وعدتهم بهدية؟!. آه... كيف تركتك تصارعين الموت وحدك؟ ماذا سأقول ان سألوني: أين كنتِ؟! صفحك يا اختاه!.. ليتني كنت قد تلقيت رصاص الغدر عوضاً عنك... آه من يتم الصغار. وأخذت أبكي لشهداء مكة ولسبايا مكة... للأكفان المطرزة بلون الدم... لمذابح المسلمين في الكعبة. وأبكي لقدسية الكعبة. التي اغتصبوها بعنف! وقمت من مكاني إذ طلبوا منّا اخلاء المستشفى كي يتم احصاء الجثث فقمت ثكلى، مقهورة، أجرّ نفسي جرّاً. وفي الخارج أبصرت بمآذن الكعبة شاهقة، فأخذت أصبّ كلمات اللوم والعتاب عليها... لكن الكلمات كانت ترتد إليّ دون جواب... لقد ارتفعت تلك الأرواح الطاهرة في أكفان الشهداء الملطخة بالدماء... مع سرب من الملائكة باكين لاطمين... على الشهداء، فيما كان الشهداء يندبون صارخين: واإسلاماه!.. ●

www.noormags.ir